د. نادية جاسم محمد

النظم الاجتماعية / حضارة ثالث – كلية التربية الانسانية * قسم التاريخ .

كانت حضارة العرب بعد الفتوحات الإسلامية حضارة عظيمة ، ويرجع سبب عظمتها إلى عاملين: أولهما: بيئة المسلمين الحديثة التي ترغمهم على التحضر والتمدن والعامل الثاني : ذكاء المسلمين وثقافتهم الأولى فقد استطاعوا أن يهضموا ويتمثلوا الحضارات التي وجدوها في الأمصار المفتوحة، في حين فشل غيرهم من الفاتحين كالبرابرة مثلا في هضم ما بقي من الحضارة اللاتينية .

أدت عملية الامتزاج والاندماج هذه إلى آثارٍ اجتماعية بعضها حسن وبعضها الآخر ضار. أما الآثار الحسنة فقد حَلَّ هذا الاندماج محل التنظيمات القبلية القديمة، فقد كان تحول سكان الأمصار المفتوحة عن أديانهم القديمة سببًا في إدخالهم ضمن التنظيم القبلي، ولكن هذا التنظيم قد بدأ يفقد شيئا من قيمته الاجتماعية، فقد أدَّى اختلاط السكان إلى أن أصبح النظام القبلي نظاما مصطنع، فقد تقارب الأفراد بفضل اعتقاداتهم أو مصالحهم مما أدى إلى اندماجهم في جماعاتٍ جديدة حلَّت محلَّ التنظيمات القبلية القديمة، كما يرجع إلى المسلمين الفضل في إزالة نظام الطبقات البغيض الذي كان موجودًا في معظم هذه الأمصار، وخاصة الدولة الفارسية فضلا عن إخراج الفُرْس من ظلمات المجوسية إلى نور الإسلام.

أما الآثار الاجتماعية السيئة فمنها ظهور مشكلة التوفيق بين مصالح الطبقات المتضادة بين العربي وغير العربي بين الغني والفقير، وبين الحر والعبد، وبين أصحاب العمل والأراضي وعمالهم وفلاحيهم ، وقد ظهرت هذه المشكلة بعد اندماج الأمة العربية في غيرها من الأمم المختلفة ذات الحضارات القديمة والأديان المتباينة، ونتج عن ذلك حالة اجتماعية جديدة توترت العلاقات فيها بين بعض طبقات المجتمع الإسلامي مما أدَّى إلى سقوط الدولة الأموية وتجلَّى هذا التوتر في الصراع الدائم بين العرب وآمال الفرس، والحرب بين النظم الاجتماعية العربية البسيطة والنظم الاجتماعية الفارسية، ولعل هذا يفسر ظهور الامارات المستقلة في المشرق الاسلامي على يد العناصر غير العربية كالفرس (الامارة الطاهرية والصفارية) والترك (الامارة الغزنوية) .

طبقات المجتمع

أولا: العرب : خرجت الجيوش الإسلامية لفتح كثير من البلاد التي كانت خاضعة للدولتين البيزنطية والفارسية، وكانت هذه الجيوش تمثل عناصر من معظم القبائل العربية، ولما تم النصر للعرب المسلمين ودانت لهم الأمصار بدأت مرحلة الاستقرار في حياة العرب، وتمثلت هذه المرحلة في بناء المدن مثل: البصرة والكوفة والفسطاط، وكانت هذه المدن في بداية أمرها معسكرات للجند العرب، وقد حرص سيدنا عمر بن الخطاب (□) على عدم اختلاط المجاهدين بأهالي البلاد الأصليين، وكان عمر يدرك تماما أن سُكنى المدن تؤدِّي إلى اختلاط الأنساب مما يؤدي إلى ضعف الجنس العربي.

حافظ العرب على تماسكهم وتعصبهم القبلي الذي كانوا عليه قبل الاسلام وبقيت نفس طبقاتهم في تشكيل القبيلة وهم العرب الصليبة اذين ينتمون لجد واحد ونسب واحد وهم (اهل الوبر) أي البدو و(اهل المدر) أي ساكني الحضر فضلا عن اختلاط الحلفاء بهم . ولكن وبعد ان كانت القبيلة يحكمها رئيس جاء الاسلام وجعل

الناس امة واحدة لها دين واحد ولغة وعادات خاصة وكوّن مجتمعاً يسوده العدل والامن والديمقراطية ، الا ان ذلك كله لم يقضِ على الروح القبلية والعصبية او يمحقها . فقد بلغت ذروتها في العصر الاموي وادت الى حدوث التصارع بين القبائل من اجل الوصول الى الحكم .

كما حافظت القبائل العربية التي أقامت في مدن منفصلة كالكوفة والبصرة والفسطاط على تقاليدها القبلية لفترة طويلة، أما تقاليدهم الحضرية الاجتماعية فقد تكونت تدريجيا فسرعان ما بدأ العرب يرتقون سُلَّم الحضارة حتى بلغوا ذروتها، وكان ذلك نتيجة البيئة الجديدة التي عاشوا فيها ونتيجة استعداداتهم الفطرية، فقد حتَّمت البيئات الجديدة على العرب الاختلاط بغيرهم من عناصر السكان الأصليين فاختلطوا مع فلاحيهم في أرضهم، وفي المدن مع أرباب المهن المختلفة، وفي الجيش حيث كانت هذه العناصر تقوم بإنشاء الطرق وإقامة الخيام، وانتقل عرب الأمصار من البداوة إلى الحضارة، واتخذ هذا التقدم صورا شتى ففي فن البناء اقتبسوا نظم الفرس والرومان وزادوا عليها ما يناسب بيئتهم وذوقهم، حتى صار نظام البناء العربي يفوق نظامي البناء الفارسي والروماني، فقد امتازت العمارة العربية بالأعمدة والمنحنيات والمآذن والقباب، وهي تماثل النخيل وهي أعز شيء عند العرب، ونالت الثقافة العربية تقدما سريعا ملحوظا كما تأثر العرب بأنواع الثقافات السائدة في الأمصار المفتوحة من قبل، على أن العرب -وإن اقتبسوا بعض معالم الحضارة عن الفرس والرومان -قد استقلوا بشعرهم وآدابهم وقضائهم وتشريعهم بل فرضوا لغتهم العربية، وأضعفوا اللغات الفارسية واليونانية واللاتينية.

كانت العصبية هي أهم مميزات حياة العرب في الدولة العربية الإسلامية بل كانت المحور الذي تدور حوله حياتهم السياسية و الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، واتخذت عصبية العرب ثلاثة مظاهر: أولها: العصبية القبلية. ثانيها: العصبية للمدينة. ثالثها: العصبية الإقليمية. كان العصر الجاهلي مسرحا لكثير من الحروب بين القبائل، وشُغِلَ العرب بالعصبية القبلية في جميع نواحي حياتهم، ثم جاء الإسلام فدعاهم إلى محو التعصب للقبيلة والجنس وأعلن مساواته بين جميع الناس؛ فقال تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" وقال الرسول (□) في خطبة الوداع:" أيها الناس إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم وآدم من تراب، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى " واختفت العصبية القبلية طوال حياة الرسول (□) وأبي بكر وعمر (□)في شبه الجزيرة العربية. ولكنها عادت إلى الظهور في الدولة العربية الإسلامية بعد انتهاء حركة الفتح واستقرار العرب في الأمصار المفتوحة.

ثانيا: الموالي:

جذرها (ولي) ومفردها موالاة أي المحالفة وتطلق على المولى في حالة انتمائه لقبيلة معينة أي يصبح حليفها ، كما تطلق على العبد الذي يعتقه سيده فيقال : مولى فلان ، او مولى قبيلة كذا . ومن ثم اصبحت الكلمة تدل على على كل من دخل الاسلام من غير الغرب واكن اكثرهم من الفرس الذين احتموا بالقبائل العربية .

لقد احسن الخلفاء الراشدون معاملة الموالي وساووهم بالعرب في العطاء وخاصة في عهد عمر (□) ورغم ذلك فقد اظهر بعضهم الحقد والكراهية لشخصه لانه قضى على الامبراطورية الفارسية وظم بلاد فارس الى الدولة العربية الاسلامية فاغتاله احد الموالي وهو ابو لؤلؤة فيروز . ومن هنا بدأ حذر العرب منهم ورغم ذلك فقد اظهر عثمان وعليا حسن النية تجاه الموالي ولكن في العصر الاموي لم يمنح الخلفاء لهم الامان او

المساواة في العطاء وجعلوهم يساهموا في المعارك بشكل مشاة ولكن القادة والفرسان كانوا من العرب .[تعليل] وكان هذا التمييز الاجتماعي والاقتصادي سبباً في نفمة الموالي على الامويين وهذا يفسر انضمام الموالي الى اغلب الحركات والتمردات التي قامت ضد الدولة الاموية كحركات الخوارج وحركة المختار ومعركة دير الجماجم حيث كان عددهم يربو على المائة الف . حتى ان معاوية بن بي سفيان قال :" اني رأيت الحمراء (أي الفرس) قد كثرت وكأني انظر وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رايت ان اقتل شطرا وادع شطرا لاقامة السوق وعمارة الطريق... ثم عدل عن ذلك " .

وهذا النص يدل على تنبأ معاوية (□) بدور الفرس في اسقاط الخلافة الاموية وتشجيع العباسيين على قيام دولتهم فيما بعد ، وكما يدل على كثرة الموالي من الفرس .

وفي العصر العباسي اعترف العباسيون بفضل الموالي في قيام الدولة العباسية ورجحت كفتهم ولكنهم انحرفوا عن مسار الدعوة عندما شعروا ان الحكم العباسي لا يزال عربيا في نظرهم وان ليس لهم ارستقراطية وحرية دينية في طل الدولة العباسية فظهرت افكار متطرفة متمردة على الخلافة قاومها الخلفاء بشتى انواع المقاومة ومنها حركة بهافريد وحركة بابك الخرمي ومزدك . . .

فيما عدا ذلك يلحظ أن الموالي كان لهم دورهم السياسي والعلمي في الدولة الاسلامية ؛ فقد قاموا بأعمال الفتوحات و التنظيم الإداري ؛ كالقيام على أمر الدواوين وتعربيها ثم كعلماء انخرطوا في طلب العلم، واستطاعوا أن يحفظوا للأمة الإسلامية تراثها الفقهي، والأدبي والحديثي وكل فروع العلم، ففي المدينة على سبيل المثال كان من سادة العلماء فيها: " سلمان بن بشار " مولى ميمونة بنت الحارث (ت 103 هـ) وفي مكة:مجاهد بن جبر، مولى قيس المخزومي (ت 102هـ) وفي البصرة: الحسن البصري، وأبوه مولى زيد بن ثابت ، وغيرهم كثير .

ابنائي الطلبة : لقد كان الكثير من العرب قد فهم الإسلام جيداً وتشرب مبادئه، وآمن بأنه يسوي بين جميع المسلمين، من عرب وعجم، وأيقن أن الرجل يشرف بدينه وعمله وخلقه، وليس بجنسه وعِرْقِه ، فأكرم الناس عند الله أتقاهم ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، فالحسن البصري – وهو مولى – كانت له منزلة كبيرة عند العرب وكلمة مسموعة حتى عند الدولة، بل كان ينتقد -علانيةً- خلفاء بنى أمية وولاتهم، ويوم مات تبع الناس كلهم جنازته، حتى لم يبقَ في المسجد من يصلي العصر، وعلى كثرة من قتل الحجاج بن يوسف الثقفي من العرب والموالي في الثورات والفتن العديدة التي شهدتها ولايته على العراق، لم يشتد استنكار الناس عليه في قتل أحد، كما اشتد عليه في قتله سعيد بن جبير وهو مولى وذلك لمكانة سعيد عند الناس، مع أنه خرج ثائرا على الدولة مع ابن الأشعث.

ثالثاً : اهل الذمة وموقف الاسلام منهم :

الذمة في اللغة: العهد والأمان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، فإن تعاليم الإسلام كانت تقضى بأنه إذا أراد المسلمون فتح إقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الإسلام فمن استجاب منهم طُبِّقت عليه أحكام المسلمين، ومن امتنع أُخذت منه الجزية. وقد عاملهم المسلمون بتسامح عظيم باعتبارهم أهل كتاب ،

وكانت كتب الصلح صورة مبرهنة على تسامح المسلمين. وكان على أهل الذمة طوال العصر الاسلامي واجبات، ولهم في مقابلها حقوق.

أما الواجبات: فكان على أهل الذمة أن يدفعوا الجزية على الموسر 48درهما، وعلى متوسط الحال 24 درهما، وعلى الفقير 12درهما ، وكان يُشترط على أهل الذمة في عقد الجزية احترام القرآن والرسول (□) وعدم القدح في الإسلام ، وألا يصيبوا مسلما بزنا ولا بنكاح ، وألا يعينوا أهل الحرب، والا يجاهروا بشرب الخمر أو إظهار الصُلبان والخنازير . أما حقوق أهل الذمة فهي الكف عنهم والحماية لهم ولأهل العهد والأمان على نفوسهم و أموالهم ، وفي الحقيقة كانت معاملة المسلمين لأهل الذمة تنم عن تسامح وعطف وكرم فقد كان أهل الذمة لا يدفعون سوى عُشر التجارة والجزية بينما هم مُعفون من الصدقات ، وكانت الجزية مقابل ما يدفعه المسلم من صدقة، وأُعفي الصبيان و النساء والمساكين وذوو العاهات والرهبان، وكثيرا ما نقض بعض أهل الذمة ما شرطه المسلمون عليهم، فكان المسلمون لا يقتلونهم أو يغنموا أموالهم أو يَسْبُوا ذرياتهم بل كانوا يكتفون بطردهم من بلاد المسلمين، وعاش المسلمون مع أهل الذمة جنبا إلى جنب فقد اشتركوا مع المسلمين في تخطيط المدن الإسلامية الجديدة، وعاشوا جميعا في سلام.

أما عن معاملة المسلمين للمجوس فقد اختلف المسلمون في اعتبار المجوس أهل كتاب فالماوردي يذكر أن " أهل الكتاب هم اليهود والنصارى وكتابهم التوراة والإنجيل ، ويجري الصابئة و المجوس مجراهم في أخذ الجزية منهم ، وإن حُرِّمَ أكلُ ذبائحهم ونكاح نسائهم، وتُؤخَذ من الصائبة والسامرة إذا وافقوا اليهود والنصارى في أصل معتقدهم .

وهكذا فقد شهد اهل الذمة في العصر الاسلامي تسامحاً وعدلا وامانا فقد اوصى القران الكريم بهم (ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا وقالوا انا بالذي انزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) كما ونهى القران عن اكراههم في الدين (لا اكراه في الدين) ، كما واوصى الرسول (ص) بهم قبل وفاته (اوصيكم باهل ذمتي خيرا) كما وسار الخلفاء على ذلك وهنا يشهد احد المستشرقين بعدالة المسلمين في التعامل مع اهل الذمة وهو كوستاف لوبون حيث يقول : " والحق ان الامم لم تعرف فاتحين راحمين مسالمين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم " . حيث سمحوا لهم ببناء الكنائس وممارسة طقوسهم الدينية واحتفالاتهم .

وكمثال على ذلك التسامح من العصر الاموي : افتتح معاوية بن أبي سفيان عهدًا جديدًا من التسامح مع أهل الذمة؛ فقد عين لولده يزيد مربيا مسيحيا، كما كلف يزيد بن معاوية كاهنا مسيحيا بتثقيف ولده خالد، وعامل المختار بن أبي عبيد الثقفي أهل الذمة معاملة حسنة، أما الحجاج الذي اتهمه المؤرخون باضطهاد أهل الذمة فقد كان عامله بخراسان يبني لأهل الذمة البِيَع، وقد سمح له الحجاج بذلك، وكان الأخطل الشاعر المسيحى يحظى باحترام جميع المسلمين. كما تمتع أهل الذمة في عهد عمر بن عبد العزيز بكثير من عدله ورحمته؛ فقد أمر عماله بألا يهدموا كنيسة أو بيعة أو بيت نار صُولح أهلُ الذمة عليه، كما نهي عمر بن عبد العزيز عامله على الكوفة عن اتباع سياسة الحجاج التي تقضى بإرجاع أهل الذمة إلى قراهم. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة –أيضا – أن يعطي أهل الذمة ما بقى من خراج الكوفة فيسدد ديونهم، ويساعد من أراد الزواج منهم، ثم ختم رسالته بقوله " قووا أهل الذمة فإننا لا نريدهم لسنة أو سنتين " وكان عمر بن عبد العزيز (□)يجعل صدقات بني تغلب – القبيلة المسيحية – في فقرائهم دون ضمها إلى بيت المال. وقد أيَّد المستشرق " ديمومبين " اهتمام المسلمين باهل الذمة بقوله: إن أهل الذمة احتلوا مكانة بارزة من حياة الدولة الأموية وكثر عددهم في الدواوين والمصالح، وزاد المستشرق " بارتولد" عليه بأن النصارى والفرس كانوا يقومون ببناء المساجد والقصور.

رابعا: الرقيق:

كانوا موجودين منذ اقدم العصور وفي كل الحضارات . وكان معظم طبقة الرقيق في المجتمع الإسلامي من أسرى الحروب خلال الفتوحات العربية الإسلامية في العراق وفارس والشام ومصر وغيرها. ومن طريق البيع والشراء في سوق النخاسة فالرقيق الابيض يحصل عليه من بلاد الروم والكرج والارمن والرقيق الاسود من السودان والحبشة . الاسلام لم يلغ الرق ولكن حرم استرقاق العربي للعربي والمسلم للمسلم ولا حتى استرقاق اهل الكتاب ماداموا في ذمة المسلمين ، ويعود السبب في عدم الغاء الرق في الاسلام [تعليل] الى ان تحريرهم يعتبر مشكلة اقتصادية واجتماعية كبيرة خاصة فيما يتعلق باوضاعهم في الجزيرة العربية مثلا حيث يتعذر ايجاد سبل العيش لهم واعدادهم كثيرة .

في الواقع كان معظم طبقة الرقيق في المجتمع الإسلامي من أسرى الحروب خلال الفتوحات العربية الإسلامية في العراق وفارس والشام ومصر وغيرها.

وخيَّر القرآن المسلمين بين قتل الأسرى أو فدائهم أو المن عليهم بإطلاق سراحهم بغير فداء أو الاسترقاق، ولم يسترق المسلمون الفاتحون إلا حاميات المدن التي قاومتهم مقاومة عنيفة، وكان المسترقون من الأسرى يُعتبرون غنيمة فتأخذ الدولة الخمس وتوزع أربعة الأخماس الباقية بالتساوي على الجند. وكان أسرى الحروب يوزعون على المحاربين المسلمين بعد إرسال الخمس إلى الخليفة ؛ فتصبح حصة المسلم المحارب عظيمة مما يضطرهم إلى بيع أسراهم بدراهم قليلة للأسير الواحد .

وقد استخدم الرقيق في الاعمال المنزلية ولاستخدامهم في زراعة الأرض أو مساعدتهم في حرفهم أو خدمتهم في قصورهم وبيوتهم ومساعدتهم في حروبهم او كحرس خاص للخليفة كما فعل المعتصم بالله .

احتفظ القرآن بنظام الرق في دائرة ضيقة، ونصح بحسن معاملة الرقيق بالعمل على تحريرهم، فقد حبَّب الإسلام للمسلمين عتق رقيقهم، وجعله كفارته عن كثير من الذنوب والآثام، فضلا عما فيه من تقرُّب لله تعالى، قال الله تعالى (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة)

مكانة المرأة في الأسرة والمجتمع الاسلامي :

كانت المرأة العربية المسلمة ذات مركز اجتماعي ممتاز في الأسرة خاصة وفي المجتمع العربي الإسلامي عامة تتناسب مع ما تؤديه من اعمال لخدمة بيتها وزوجها وتربية اولادها ، وذلك بالرغم من ان نظام الابوة هو السائد في المجتمع العربي . واباح الاسلام للمرأة حرية التعليم والمشاركة في مختلف الانشطة الحضارية فقد كان للنساء خلال الفتوحات العربية الإسلامية نصيب من الفيء والغنائم ، وأعفيت المرأة غير المسلمة من دفع الجزية، وشاركت بعض النساء في الحروب مثل (خولة بنت الازور) واسعاف الجرحى (مثل ليلى الغفارية) ، وكانت بعضهن يمارسن كثيرا من أنواع النشاط الاقتصادي مثل السيدة خديجة (□) ، وقد برزت في الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي عدة نساء كان لهنَّ مركز اجتماعي ممتاز في مقدمتهنَّ

السيدة عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنه(زوجة الرسول الكريم (□) فقد اشتهرت بتفوقها في الفقه ورواية الحديث و الفتيا والأدب والتاريخ والنسب. ومن شهيرات النساء أيضا الفقيهة شهدة . واشتهرت بعض النساء بالزهد والتصوف بجانب الصلاح والتقوى مثل رابعة العدوية ، وبرزت بعض النساء في ميادين السياسية منهن أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك وقد اشتُهِرَتْ بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر ، كما ظهر منهن ملكات تحكمن لاول مرة في العالم الاسلامي مثل شجرة الدر في مصر التي تصدت للحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ، والسلطانة رضية الدين في الهند .

اما عادة الوأد التي كانت موجودة قبل الاسلام فقد حرمها الاسلام ولم يكن وجودها بسبب احقار المرأة كما يدعي بعض المستشرقين بل لاسباب اقتصادية تتعلق بأعباء اعالتها في الاسر الفقيرة وهي حالة قليلة نسبيا . قال تعالى (ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم) . كما كرّم الاسلام المرأة واعطاها حقوقا سياسية ودينية فقد اعترف باهليتها في الحقوق الدينية والمدنية والمالية فقال تعالى: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) كما حث الرسول الاباء على عدم ايثار الابناء على البنات في العطايا فقال : " ساووا بين اولادكم في العطايا فلو كنت مفضلا لفضلت النساء " .

كما اعطى الاسلام المراة حق الميراث (وللذكر مثل حظ الانثيين) كما جعل الزواج عقداً دائماً يربط الرجل زوجته برباط مقدس كله حب وسؤدد (ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) كما صان عفاف وجمال المرأة بالحجاب الذي هو ستر لها وحرمة .

أنت الزمان ، إن صلحت صلح الزمان وان فسدت فسد الزمان .. الخليفة المأمون